

الشَّعبويَّةُ والغَرْبُ.. في المفهوم والتباساته

طاهر المصري

ندوة

(الشعبوية والخطاب الغربي حول الحُكامة)

أصيلة؛ المغرب

12 _ 14 تمّوز/ يوليو 2017

منتدى أصيلة الثقافي الدولي 39

جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية

(الدورة 32)

**أسعد الله أوقاتكم جميعاً..
وأشكر منتدي أصيلةً وجامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية على اختيارهما لهذا
العنوان للانتداء والتفكير والبحث..
كما وأشكر معالي الأخ مجد بن عيسى على هذه الدعوة الكريمة..**

تُدْهَشُنِي، كما تُدْهَشُ غَيْرِي، حَدَّ الحَيْرَةِ، مسألهُ توصيف المجتمعات الغربية بالديمقراطية، إذا ما قارنًا تصرفاتهم وأساليب حكمهم، التي تميز بها استعمارهم لبلدانٍ كثيرة في هذا العالم. وكم كان حكمهم ظالماً وقاسياً، ونظرتهم الدونية للإنسان في المناطق الأخرى التي استعمروها، والتاريخ يشهد بأن معظم الدول الاستعمارية كانت أوروبية. وعلى الرغم من ذلك التاريخ الاستعماري الأوروبي الطويل، فإنّ هذه المجتمعات نفسها اتجهت، مع الطابع القومي الذي كان سمة الصراع في أوروبا بين القوميات، إلى ترك المفهوم الاستعماري تدريجياً، وانتقلت (أي أوروبا عموماً أو الغرب) إلى أن تكون المدافع عن حقوق الإنسان والديمقراطية والتمسك بقيم إنسانية ذات مستوى عالٍ..!؟

ومصدراً الدهشة يكمن في هذا التناقض؛ إذ كيف لهذا الغرب الأوروبي، ومن بعده الغرب الأمريكي، الذي امتلك، قبل عقود قليلة، ناصية الدفاع عن تلك القيم الإنسانية العالية، لأرقى أشكال الاجتماع البشري، أن يرتدّ إلى حالة مريضة، من تكريس حالة الخوف من التنوع العرقي والديني..!؟ وأجيبُ على تساؤلي بالقول؛ أنّ هذه الديمقراطيات الغربية تصحّ نفسها بنفسها. ولكنّ هذا يحدث، عادةً، بعد وقوع الضرر. فأنا ممن يعتقدون بأنّ النازية، وهي حركة قومية متطرّفة، كانت جذورها شَعْبَوِيَّة.

في البدء..

اسمحوا لي بهذه المغامرة النظرية..

أو ليس كلُّ نظرية علمية تبدأ بمغامرة الافتراض، ثمّ يجري اختبار صحّتها من عدمها بالتجريب والاختبار..؟

أزعمُ أن المعارفَ البشرية قد قَصُرَت، حتى اليوم، في إنتاج تعريفٍ علميٍّ وسياسيٍّ واجتماعيٍّ دقيقٍ لـ(ظاهرة الشعبوية)..! وهو تقصيرٌ فادح الخطورة، وذلك لما يترتب عليه من إمكانية إعادة تكرار كوارث سياسية وإنسانية كلِّما توافرت الظروف الملائمة لتكرارها، ومن دون وجود تحصينٍ لمجتمعات العالم من هذا التكرار لتلك الظواهر الكارثية.

فالشعبوية، مثلاً، كظاهرة، تكرر ظهورها في كلِّ، أو معظم، المجتمعات الإنسانية، ولم يُنتج العالمُ، حتى اليوم، المفهوم التاريخي الإنساني الذي يدينها، أو يضع حدًّا مقبولاً لتجريم أو إدانة أشكالها السلبية..!

لهذا، فمن الطبيعيِّ والمنطقيِّ، أن تتكرر نماذجها من قبل كثير من القادة المعاصرين، ومن دون خوف من أن يطالهم اللوم التاريخي الإنساني، في حال بدت عليهم الأعراض السلبية لهذه الظاهرة المرضية المتخلِّفة، في سلوكهم السياسي والاجتماعي والثقافي. وتجربة الفاشية في أوروبا خيرُ شاهدٍ، على أنَّ تعريف المجتمعات الإنسانية للمعاني العميقة للكوارث والظواهر التي تمرُّ بها هو أفضل تحصينٍ لها في منع هذه الظواهر من العودة إليها، وإن بأقنعةٍ مغايرة. ذلك أنَّه من الصعب، مثلاً، إن لم يكن من المستحيل، على الفاشية كتجربة أن تتكرر في أوروبا، كما ويصعب على أي نموذج حاكم، أو قائد أوروبيٍّ، أن يكرِّر السلوك الفاشي، فالمعارف البشرية المشتركة أنتجت تعريفاً دقيقاً لمفهوم الفاشية، جعلت منه مفهوماً مرذولاً وممقوتاً تاريخياً وسياسياً بل وإنسانياً أيضاً.

أيتها السادة..

قد أكون استعجلتُ، أو تعجَّلتُ، في الافتراضِ، بالوصول إلى تحديد الأسباب والنتائج، قبل تشخيص الظاهرة التي نحن بصددِها.

غيرَ أنَّ الشعبوية، التي تشهَدُ اليوم نهضةً عارمةً في الغرب الأوروبيِّ والأمريكيِّ الديمقراطيِّ الحديث، قد تكون سبباً في ذلك التعجُّل الذي ابتدأتُ به. وذلك، لما لذلك الصعود في للشعبوية في الغرب من تأثير مباشر على قضايانا المصيرية والاستراتيجية في عالمنا العربيِّ والإسلاميِّ عموماً.

فإذا كان تكرار نماذج الشعبوية في بلادنا والعالم الثالث، منذ أمدٍ طويل، باتَ أمراً مألوفاً، بل ربّما يشكّل تاريخنا العربيّ القريب كلّهُ، فإنّ حالَ الشعبوية غير ذلك تماماً في الغرب. فقد سادَ في الغرب يقينٌ عام، بعد الحرب الكونية الثانية، أنّ نجم الشعبوية قد أفلَ هناك إلى غير رجعة. فما الذي أعادها اليوم على صهوة حصان سباقٍ سريع..؟!

ما أريد قوله هنا بتحديدٍ وتكثيفٍ أكثر هو؛

إنّ قصور المعارف الإنسانية المشتركة المتراكمة، والتي أساسها البحث التاريخي العلميّ، كهذه الندوة التي يقوم بها منتدى أصيلة وجامعة المعتمد بن عبّاد، عن صياغة تحديدات تعريفية حاسمة للظواهر الشمولية وغيرها، يؤدي إلى اعتلال الحركة الراهنة والمستقبلية للمجتمعات، وإلى السّماح بإمكانية تكرار الأخطاء التاريخية. فبحث الظواهر ودراساتها وتعريفها علمياً هو أكثر من مجرد قراءة للواقع الإنساني، وجعله متصلاً ومحل مراجعة إنسانية وحضارية دائمة. ذلك أنّ للبحثِ وظيفةً بالغه الأهميّة في حياة مجتمعاتنا اليوم، ألا وهي قمعُ تكرار الأخطاء، وإنتاجِ حصانة حضارية مستدامة، تضمن أنّ حياة المجتمعات وراهنها يتقدّم إلى الأمام، وأنّ فعل التاريخ الجاري في تلك المجتمعات، بوقائعه، هو فعلٌ حضاريّ، وليس فعلاً ماضوياً مستنسخاً، أو جامداً، أو مكرّراً.

بهذا المعنى يصبح ما نقوم به في هذا المنتدى، وغير ذلك من إطارات الانتداء والدراسات العالمية الاستراتيجية، غير المرتبطة بأدوات السياسة وإدارتها، هو عملية إنتاجٍ للمعرفة، في جزء من مساراته. وهو، أيضاً، أشبه ما يكون بعملية بناء متّصلة لهياكل الذاكرة الإنسانية الحضارية، التي تصوّب فعل التاريخ وحركته، وتحقن ذاكرة البشرية بالقيم، التي تقاوم عودة مجتمعاتها إلى نماذج سياسية واجتماعية وثقافية، مسؤولة عن تخلف العقل وتعطيله. فحينما ننتجُ هنا (أي بمعارفنا) تعريفات حاسمة للظواهر السياسية، و(الشعبوية الجديدة وحكّامات الغرب، بأشكالها الديمقراطية التي نرى إفرازاتها نموذجاً)، فإنّ ذلك يتبعه إنتاج للقيم الإنسانية والإصلاحية التاريخية، التي تمنع تكرار الظواهر المرضية والمريضة. فالعلاقة بينما نقوم به، كأبحاث تاريخية وعلمية في قضايا راهنة، وبين إنتاج قيم على مستوى العالم، هي عملية متصلة تتحدد بمضمون جدواها الإنسانية والحضارية. ومن دون هذه الجدوى الإنسانية يصبح عملنا، وكذلك التأريخ بعامة، هو مجرد رواية للتاريخ (أي للوقائع والأحداث القريبة منها والبعيدة)، وليس فعلاً إصلاحياً كما يجب عليه أن يكون في أصل غايته وهدفه.

وهنا، أسمحُ لنفسي بالقول:

إنّ الشعبوية، كمفهوم، لا تزال، بفعل تعريفاتها الناقصة وغير المحدّدة، قادرةً على التستّر وتأويل ملامحها، بدعوى المقدّس تارةً، وبدعوى الانتماء الأعمى تارةً أخرى. وهما هيَ اليومَ تطلُّ على العالم، برأسها البشع، من رحم الديمقراطيات الغربية، باسم الهويات المحليّة تارة، وباسم مكافحة الإرهاب والتطرف الإسلامي تارة أخرى.

ثمّة مساحات لا تزال خاوية في تعريف الشعبوية، يا سادة. فالذين قاربوا قضية الشعبوية، وما تمثّله، لم يتمكّنوا بعد من إكمال إنتاج سيرتها التعريفية العلمية؛ أهَيَ القائدُ أم خطابه..؟ أم هيَ أيديولوجيا غوغائية..؟ أم أنّها جميعها معاً..؟ أم أنّها شيءٌ آخر تماماً..؟ كما أنّهم لم يتمكّنوا من وضع التعريف الحاسم الخاص بها، الذي يصمّت إزاءه الالتباسُ، ويتبدّد الخلطُ بين حالاتها وحالات أخرى تشابهها، أو بين مصطلحات تلازمها لإيضاحها؛ كالديمقراطية المباشرة أو الديماغوجية أو الفاشية أو الديكتاتورية أو الدينية وغيرها.

فالوجه التعريفيّ الدقيق لمصطلح الشعبوية لا يزال ملتبسا، بمعنى؛ هل هي أيديولوجيا شاملة..؟

أم غوغائية شعبية، يمتطي ظروفها رجل عيّن نفسه قائداً ملهماً، قادراً على استثارة جينات الغرائز في مجتمعه على حساب مصلحة العقل وتعطيله..؟ أم هي مجرد خطاب يصادر اللحظة الراهنة، ويقودها بالعصبوية والغيبية إلى ماضٍ سحيق على صورته، في العلاقة بين القائد والجماهير، فتتبدّد المواطنة بمعناها الحديث، ليصبح الحاكم نصف إله، أو شخصاً يشبهه على الأرض..؟

وللأسف، فإنّ مراحل من التاريخ حينما تنقاد بظواهر شمولية عاصفة، فإنّ مؤرخيها يصبحون ضحايا الكتابة عنها، تماماً مثلما يتحوّل مواطنو تلك الحقبة الشعبوية أو الشمولية إلى ضحايا لها.

فالشعبوية، ولفرط بشاعة فعلتها ضدّ تطوّر المجتمع، تستدرج المؤرّخ الراصد لها إلى حالات نافرة من الانحياز الحضاري الإنساني ضدّها، فيصبح ميّالاً لتأكيد استهجانها لها، عبر لصق كلّ ما توافر من مشابهاة تعريفية مكروهة بها..! وهذا بعض أسباب الالتباس في تعريفها وتحديدها كمفهوم وكظاهرة إلى اليوم.

الشعبوية، أيها الأفضل، تمارسُ حقبتها الثقافية والاجتماعية والسياسية، عادةً، بضجيجٍ وصخبٍ إلغائي. وهَا نحنُ نُصغي إلى ضجيج عجلاتها (الإلغائي) الصاخب، القادم إلى العالم على سلك حديد أوروبية وأمريكية عملاقة..؟!

في التعرّف على الشعبوية وتعريفاتها..

إنّ إيجاد تعريف محدد وواضح للشعبوية مسألة ليست هيّنةً أو سهلة. إذ ليس هناك عقيدة متماسة أو أيديولوجيا اسمها الشعبوية، بل هنا شعارات أو نوع من التوليف بين الاحتجاجات الشعبية وبين بعض التركيبات الأيديولوجية، حيث تنسجم الشعبوية مع كل الأيديولوجيات العالمية؛ الاشتراكية، الفاشية، الفوضوية، الشمولية، القومية، والوطنية، والديمقراطية وغيرها، وذلك لكونها أقرب إلى أن تكون أسلوبا سياسيا منها إلى كونها عقيدة. وإذا كان لا بد من اقتراح أيديولوجيا للشعبوية فهي أقرب إلى أن تكون على علاقة بالبعد الأسطوري، الذي يظهر من خلال التأكيد والتشديد في الخطاب الموجّه على فكرة وحدة الشعب، أو جزء منه، بمعنى أن يكون الشعب كتلة واحدة، بما يمنحه هوية أو صورة واحدة عند التّخب والعامّة.

فالشعبوية لا يمكن اعتبارها تلقائيا حركة رجعية ديمغوجية أو فاشية، كما يصنفها البعض. فهي ظاهرة انتقالية سطحية ومؤقتة، تبرز في إطار أزمة عامة، ووضع سياسي اجتماعي يصعب احتمالاه بالنسبة للأكثرية. فهي، على هذا النحو، بمثابة جرس إنذار عالٍ ومدوّ، لمن يريد أن يسمع، أكثر منها انفجار يدمر كل شيء. وهي أيضا رسالة خطيرة وشديدة الوضوح للطبقات الحاكمة وحكوماتها. رسالة مفادها أنّ إشارة الإنذار إذا لم تصل إلى مَنْ يحكمون فإنّ الاستعانة بالشعب تمثل الحلّ البديل للوضع المأزوم، وخارج كل المؤسسات التقليدية للحكم والحكومات. فالجالجوهُر والخطرُ هنا ليس في اليقظة الاجتماعية المرافقة لصعود الظاهرة الشعبوية، بل في العمق العاطفي الذي يحركها. فالتماسك هنا، في مَنْ يلتقون حول الشعبوية أو يلحقون بها، أو يستخدمونها ويوظّفونها، ليس اجتماعيا بل هو تماسكٌ نفسيّ. فهي، إذن، من جانبها الشكليّ، ردّة فعل غاضبة ومشكّكة، في كلّ المؤسسات والبُنَى المكوّنة للدولة والمجتمع، وفي القوى المُهدّدة للأساطير القومية التأسيسية التي قامت عليها الدولة والمجتمع..

والشعبوية لا تطرح نفسها كفكرة فريدة من نوعها، أو نظرية شاملة، ولا كمفهوم للإنسان والمجتمع، بل هي قبل كل شيء رغبة عارمة في إعادة الملكية المشتركة

للجميع، بعد أن يسود شعورٌ عامٌ وعميقٌ بأنّ المقدّرات العامة للناس تُنهبُ، وأنّ المصائرَ الفردية للمواطنين وعائلاتهم باتت في مهبّ الريح.

ومن نافلة الكلام هنا، التذكير بضرورة التفريق بين أشكال بروز الشعبوية ويقظتها وبين أشكال ومظاهر تطبيقها وممارستها.

_ فالشعبوية في الممارسة؛ هي غوغائية وطنية، لا تقوم على محاسبة فعلية، ولا تعمل على تحقيق أهداف، وبرامج واضحة وحقيقية. بل هي أشبه ما يكون بعرضٍ دائمٍ، وتماهٍ مستمرٍ، بين الشعب والقيادة، من خلال الاحتفاء والتمجيد والتقديس.. وهي، في التطبيق؛ تعكس التحقيق الوهمي لمتطلبات وأهداف وطنية وقومية، يتبدّى تحقيقها في الواقع بعيد المنال. وهي تقدّم للنخب الحاكمة وسيلة رخيصة، وغير مكلفة، للتخلّص من مسؤولياتها الفعلية، والتغطية عليها، وتمنحها فرصة لتجنّب الاعتراف بأخطائها وتقصيرها وإخفاقاتها في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية..

_ والشعبوية، أيضاً، تجمع بين المبالغة في إرادة تأكيد الذات والاستقلال والسيادة وجبن الممارسة من جانب، وبين انفعاليتها المفتقرة للعمل الجدّي والمنظّم والعقلاني طويل المدى. فهي لا تكفُّ عن تنمية التناقض والتفاوت بين طموحات كبيرة جداً وبين فعاليات ضعيفة جداً، في الخطاب الموجه إلى عامة الناس..؟!

_ والشعبوية، من وجهة نظر أخرى؛ هي رفض لكلّ المؤسسات، ولكل أنظمة التمثيل، ولكل مساعي التفكير الحرّ أيضاً، وكلّ ذلك يحدث ويُمارَسُ باسم (مصالح الشعب العامة). وهذه الرؤية تعتبر أن الإرهاب يمثل أقصى أشكال الشعبوية، أي أن الشعبوية هي (الشرّ السياسيّ) بعينه، بحسب تلك الرؤية..؟!

كلُّ تعريفٍ من التعريفات السابقة هو مكوّن من مكونات الشعبوية، ولا يمكن استثناءه في تعريف الظاهرة، لكنّها في مجموعها لا تشكل تعريفاً حاسماً لها.

من جانب آخر، فإنّ واحداً من المُحدّدات الرئيسية للشعبوية هي أنّها إحدى أعلى مراحل الشمولية..

فمن مواصفات الشعبوية أنّها تشترك مع ظواهر شمولية أخرى في الظهور للناس، وفي أداء أبطالها وتطبيقاتها. فالشعبوية هي طريق باتجاهين؛ قائد أوجد ملهم، ومجتمع منغلق يتبعه.

والشعبوية هي مظهر من مظاهر الانقياد الأعمى ثقافيا واجتماعيا وسياسيا للفكرة الدعائية التي تصبح هي القائد ثم يصبح القائد (هي). فالقائد، في الظاهر الشعبوية، ليس دكتاتورا فقط، بمعنى أنه يرمز إلى خوف الشعب منه، بل هو يرتقي إلى مرحلة قيادة الوجدان التاريخي لشعبه. فترهيبه يطال وجدان الشعب وليس خوف الشعب المادي منه فقط، وعادة ما يكون هذا الوجدان الشعبي المستثمر من القيادة الشعبوية هو قومي أو ديني، أو كلاهما معاً، في آن واحد. فالقيادة الشعبوية تبحث عن قيادة ذات أقاليم ثلاثة؛ مقدسة ووجدانية وشاملة، سواء كانت حاكمية، أو معارضةً وتسعى حثيثاً إلى الحكم، متوسّلةً الشعبوية سُلماً للوصول.

ما يميز الشعبوية عن الفاشية والدكتاتورية هي أنها لا تطرح شعاراً جديداً، بل تكتفي بالشعار القديم، وأي جديد تطرحه هو تجديد للقديم. بينما تخلط الفاشية بين شعار الأمس واليوم. أما الدكتاتورية، فهي تلغي كل شيء حتى الأمس القريب، لمصلحة الفكرة الجديدة الأحادية.

صحيحٌ أنّ الشعبوية تجمع ضمن ممارساتها ملامح من الفاشية والديكتاتورية، ولكنها تذهب أبعد منهما في تحقيق وحدانية انقياد المجتمع لقائده، عبر جرّه إلى الانقياد الأعمى، عن طريق جعل الوجدان الماضي هو الحاضر وكلّ المستقبل.

وبكلام أقلّ؛ الشعبوية هي قيادة تعيد تكرار التاريخ. وقاعدتها الاجتماعية هي مجتمع يستنسخ جيناته التاريخية والاجتماعية والثقافية القديمة. وهي الأمس الذي تتم استعادة أنماط عيشه بكلّ معانيه، دافعة الناس، بكل ما تمتلك من قوّة خطابها، إلى إعادة انتظار تحقّق الماضي إلى الأبد.

العرب الأوروبي والأمريكي والشعبوية..

يعتقد البعض أنّ العالم يشهد، منذ ثمانينيات القرن العشرين، يقظةً شعبية..؟! وأنّ مصطلح الشعبوية خرج كماردٍ سحريّ من القمقم، منذ ثمانينات القرن الماضي، ليؤشر إلى ظهور مرحلة جديدة في الحياة السياسية، أو لنقل لحدوث تغيير في المشهد السياسي داخل المجتمعات، على نحو باتت هذه الحركات الشعبوية واسعة الانتشار، وتغطّي مساحة كبيرة من الخريطة السياسية العالمية.

وتتفق غالبية النخب الثقافية، على اختلاف مشاربها الفكرية، وانتماءاتها الجغرافية على وجه الأرض، على اعتبار هذه الظاهرة آفةً تصيب المجتمعات، وخطراً يتهدّد استقرارها، مهما كان شكل الحكم فيها.

أمّا ما هو مؤكّد، فهو أنّ الظاهرة الشعبوية ليست وليدة الثمانينيات في القرن العشرين. بل إنّ العالم قد عرفها من قبل؛ ففي فرنسا مثلاً، وإبان الجمهورية الثالثة، كان الجنرال (جورج بوانجيه) نموذجاً فاقعاً للقائد الشعبوي.

وعرفتها، فيما بعد، إيطاليا، من خلال ظاهرة وحُكم موسوليني ونظامه الفاشي. كما عرفتها ألمانيا مع هتلر ونظامه النازي.

وكذلك عرفها الاتحاد السوفييتي مع حكم ستالين.

وتجلّت بأبهى صورها في حقبة ماو تسي تونغ وحركته الثقافية في الصين. كما أنها تمدّدت فوق مجمل أراضي أميركا اللاتينية، من كوبا في ظلّ حكم كاسترو، إلى الأرجنتين إبان حكم خوان بيرون، وصولاً إلى فنزويلا في عهد هوغو تشافيز.

كما أنّ للعالم العربي حصّته الوافرة من الشعبوية، فلطالما وُصفت الناصرية بالشعبوية، ثمّ تجلّت الظاهرة، بأبهى صورها، في جماهيرية الرئيس الليبي السابق معمر القذافي. فالظاهرة، إذًا، اتخذت من مجتمعات القارة السوداء مرتعا لها، شاملة بذلك القسم الأكبر من أشكال الحكم فيها.

من جانب آخر، فإنّ بعض المفكرين يرون أنّ أوروبا عرفت الشعبوية في حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية، ثم ضعفت وانكفأت في أوروبا بعد أن حطّت الحرب أوزارها، ثم شهدت صعوداً في معظم دول العالم الثالث، بعد تلك الحرب. بمعنى أنّ الشعبوية انكفأت في أوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وانتعشت وصعدت في دول العالم الثالث.

أما اليوم، فإنّ عدداً كبيراً من المفكرين يعتبرون أنّ الشعبوية عادت إلى واجهة العمل السياسي في الغرب. ويحذّرون من خطرها على الديمقراطية، وإن تكن شريحة منهم لا توافق على ما يسمى بعودة الشعبوية إلى الساحة السياسية في المجتمعات المدنية، وينظرون إليها كحركات نشأت في الديمقراطية التمثيلية، التي تهدف إلى انتزاع المزيد من المطالب التي يشعر المواطنون أنهم بحاجة إلى تحقيقها.

كما أنّ شريحةً أخرى من المفكرين يرون أنّ عودة الشعبوية غير مقلقة ولا تنذر بأيّ مؤشرات خطيرة، ولا تستدعي كلّ هذه المخاوف، لا على الديمقراطية ولا على الحياة السياسية..؟!

المهم، أنّ هناك جدلاً، في الغرب، حول عودة الشعبوية، كظاهرة في الحياة السياسية. فلماذا هذا الجدل في الغرب إذن حول هذه الظاهرة..؟ وهل أنّ الحركات، التي تصنّف هناك على أنها حركات شعبية، هي فعلاً كذلك، بحيث أنّ هناك خلافاً حول تصنيفها ومدى خطورتها، ومدى وجودها كظاهرة..؟ وماذا عن هذه الظاهرة في مجتمعات العالم الثالث، فهل هي فعلاً منتعشة، وتحتل المشهد السياسي داخل تلك المجتمعات؟ وهل كانت مرحلة ما سمّي بـ(الربيع العربي)، وما بعدها، هي إحدى أشكال تنامي ظاهرة الشعبوية في بلادنا، بعد أن فاضت الظروف الملائمة لانتعاشها عن كلّ حدّ، وعمّرت كوارث الفشل العربي، في الحكم والحكومات، بأشكالها المختلفة، حياة الفئات الاجتماعية من الناس في القارة العربية المنكوبة بحكوماتها وحكوماتها..؟

ما يبرّر تلك الأسئلة اليوم ومحاولات تلمس إجاباتها، وكما ذكرتُ آنفاً، هو أنّ الشعبوية لم تنل، حتى اللحظة، تعريفها المحدد في البحث التاريخي. فقد بقي تعريفها عاماً، ولم ينفذ إلى كنهها الخاص..!

إنّ هذا النقص يحقّز على بذل جهد إبداعي للمؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة، وذلك من أجل إدراك سبل غير نمطية تساعد على لحظة تعريف محدد للشعبوية. تعريفٌ إيجابي، وليس تعريفاً سلبياً، يشوبه الخلط بينها وبين تعريفات ظواهر أخرى.

فالبحث التاريخي اكتفى بوضع تعريف سلبي من ناحية، وملتبس من ناحية ثانية للشعبوية. ما يعني أنّ المنهج التاريخي العلمي المجرّد قاصر، وحده، عن النفاذ إلى ماهية أو خاصية الشعبوية، ولهذا بقي تعريفها عاماً وضبابياً.

يمكنني القول: إنه طالما أنّ الشعبوية هي ظاهرة مركّبة، يتداخل فيها الإنساني بالسياسي والثقافي بالوجداني، وتداهمها ملامح ديكتاتورية وفاشية، فهذا يعني أنها ليست ظاهرة داخل التاريخ فقط، بل هي حياة كامنة داخل المجتمعات التي تصنع التاريخ أيضاً، بأشكاله المختلفة، الماضية منها، تماماً كما الراهنة والمعاشة والمستقبلية. وتُنذر بالعودة والتجدّد، بل واكتساح مجتمعاتها بأكملها، على نحوٍ يمكن

لها أن تكون حقبة ومرحلة من تعطيل العقل وتكريس حُكم المجتمعات وإدارتها، استناداً إلى القدرة على التحكم بغرائز الناس وعواطفهم ووجداناتهم الجمعية. وأعتقد أنّ أحدَ خصائص الشعبوية، خاصة في بلدان العالم الثالث، تركّز، في مفهومها وأساليبها، على بناء السلطة أكثر من تركيزها على بناء الدولة. فطبيعة الحكم الشعبوي تدعو إلى زيادة السيطرة على حركة الرأي العام وتوجهاته. وهي سوف تُنشئ وتُدعم الأدوات التي تجعل الحكم أكثر أماناً من وجهة نظرها. وسوف تجتذب الأنظمة الشعبوية الأدوات إلى جانبها، وهي أدوات عادةً ما تكون انتهازيّة متسلّقة.

في يقظة الشعبوية في الغرب الديمقراطي..

فما هي أسباب تلك اليقظة..؟

يذهب بعض الباحثين إلى أنّ أسباب يقظة الشعبوية في أوروبا تقف وراءها مجاميع معارضة للعولمة المتوحّشة، باعتبارها سبباً لكل الشرور. فقد نشأت حركات تنتمي إلى ما يسمى باليمين المتطرف، حاملةً أسماءً مختلفة؛ كالنازيين الجدد، والفاشيين الجدد، وعدد كبير من الحركات المعادية للأجانب وللمهاجرين والرافضة للعولمة والمدافعة عن الهوية الوطنية. وهي حركات استطاعت، ومنذ ظهورها لأول مرة حتى اليوم، أن تتمدد وتنتشر على مساحة رقعة واسعة من القارة الأوروبية، فهي اليوم موجودة في كل من؛

سويسرا، النمسا، إيطاليا، بلجيكا، النرويج، هولندا، المجر، البرتغال، رومانيا، ألمانيا، وفرنسا. كما تمكّنت هذه الحركات من احتلال حيزٍ مقلقٍ في المجال السياسي. إذ أصبحت قادرة على إيصال ما يقارب نسبة الربع كأعضاء في البرلمانات، وهي نسبة مقلقة بالنسبة للنخب الحاكمة.

لا يختلف المشهد الأمريكي كثيراً عن المشهد الأوروبي. فمع صعود أسهم (حزب الشاي) الذي اجتاح الواجهة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، قبل سنوات، فقد تمهّدت الأرضية في المجتمع الأمريكية لمعركة الرئاسة في الانتخابات الأمريكية الأخيرة، التي انتهت بفوز الرئيس ترامب.

وتيّار حزب الشاي الأمريكي هو حركة اختارت لنفسها اسماً تيمناً بحادثة حصلت قبيل الاستقلال الأمريكي، وكانت من ضمن عمليات الثورة الأمريكية في وجه الاستعمار البريطاني. حيث رفض الثوار الأمريكيون آنذاك دخول سفن بريطانية محملة بالشاي إلى

مرفأ مدينة بوسطن، فتصدّوا لها ومنعوها من الدخول. ويسعى هذا التيار الحزبي الأمريكي لاسترجاع زمام السلطة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، بحيث يعتبر أنّ الأول، والذي انشق عنه، حزب ضعيف ومتهاون، أما عن خصمه الديمقراطي، الذي جاء بباراك أوباما إلى السلطة، فجهودهم منصبّة على مهاجمة الرئيس أكثر من مهاجمتهم الحزب، من حيث التشكيك بولائه؛ فهو لم يولد في أمريكا، وهم ينعنون بالاشتراكي، الذي يحنّ إلى أصوله الكينية، إضافة إلى خطابهم العنصري التحريضي المتطرف ضد الإسلام..؟! كذلك، فإن هذا التيار يتشدد في كل ما يتعلق بالوضع الداخلي. كما استطاعوا هزم الجمهوريين في انتخابات الكونغرس، وفي دوائر لهم فيها جذور راسخة. وهم يتقدمون لكسب عدد من المقاعد في مجلسي النواب والشيوخ.

هذه الحركات بدأت تثير قلق النخب الحاكمة وكذلك شريحة واسعة من النخب الثقافية في تلك المجتمعات. وقد كثفت جهودها، في الآونة الأخيرة، ورفعت الصوت عالياً حول ضرورة الوقوف في وجه هذه الظاهرة، نظراً للتهديد الذي تشكّله على الاستقرار وطبيعة النظم السياسية القائمة في تلك المجتمعات.

وبالتحقّظ على الجهود الأوروبية في تضخيم مدى خطورة تلك الظاهرة، من حيث أنّها جهود لا تُنتج معارف وتشخيصات حقيقة لظاهرة تلك الحركات الشعبية، بقدر ما هي محاولة منهم لحشد غير المؤيدين المشرذمين، من أجل الوقوف في جبهة واحدة للحد من تصاعدها. وهو ما حصل مؤخراً في فرنسا تجاه ظاهرة (ماري لوبان). فإنّه، وفي مقابل القلق، الذي تبديه هذه النخب، نجد أنّه لا يوجد خوف حقيقي منها، نظراً لقناعة معظم مفكري تلك المجتمعات بعدم قدرة تلك الظاهرة على تقويض الإنجازات التي تحققت منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، فهم يجمعون على أنّ المصير المحتم لتلك التجربة هو (الانهيار)..!؟

بهذا الفهم، وانطلاقاً من هذه الخلفية، فإنّ بعض المفكرين هناك يعتبرون؛ أنّ هذه الظاهرة ليست جديدة، ويذكرون بفترة خمسينيات القرن العشرين، حيث اعتبرت المكارثية في أمريكا، من قبل اليسار الأمريكي، كظاهرة شعبية. والذين انتقدوا المكارثية رأوا فيها امتداداً للتقاليد، أي بقايا للماضي، ما جعل الناس لا يخافون ولا يفقدون الأمل على أساس أنّ الماضي محكوم عليه أن يبقى ماضياً. وهي صيغة لتطمين الخائفين على المستقبل، بأنه لا مستقبل لهذه الحركات كونها تحاكي ماضياً يحرض الأوروبيون على تجاوزه وبقائه ماضياً. وذلك استناداً إلى أنّ الديمقراطية صخرة تنكسر عليها الأمواج الشعبية في المجتمعات الحديثة، في حين أنّها في مجتمعات

العالم الثالث، تحضر بقوة، وهي كالتسونامي، قادرة على جرف كل ما يصادفها وما من شيء يستطيع إيقافها.

فهل الديمقراطية الغربية هي حقاً كذلك..؟ بمعنى هل إن الديمقراطية الغربية تشكّل الحصن المنيع أمام الظاهرة الشعبوية، مانعة إياها من تقويض المكتسبات التي صنعتها الديمقراطية..؟

أو لم تقوّض النازية الديمقراطية الألمانية قبل أكثر من ثمانين عاماً..؟ وقادت العالم إلى حرب كونية ثانية كان ضحاياها بعشرات الملايين..؟

ما أخشاه، شخصياً، وأحذّر منه؛ هو علاقة وتأثير الشعبوية في تباين المصالح بين الأوروبيين أنفسهم، وتوظيف ذلك في صراعات المصالح داخل القارة الأوروبية، خارجها على مستوى العالم، متكئين على قضايا عادلة كالإرهاب..! فالحقيقة أنّ هذا التيار الشعبوي الجارف، إذا ما نجح، والذي يعمل من أجل صناعة وتكوين هوية أوروبية، ومصالحة عامة، لمواجهة التكتلات العالمية، كأمریکا والصين وربما الهند، كلّ هذا لن يجدي نفعاً، وسيؤدي إلى ضياع هذه الدول منفردة واتحاداً.

فالشعبوية في مجتمعات الغرب، كما نرى أشكال ظهورها وتظهيرها وتوظيفاتها اليوم، إذا ما استمرت، وأخذت مداها، في أمريكا وأوروبا، فإنّها، في ظنّي، ستسير بالعالم وتقوده باتجاه صراع الحضارات، وقد لا تأخذ شكل صراع حضارات بقدر ما ستظهر على أنّها صراع أديان. عندها تكون الطامة الكبرى على الشعبويين والديمقراطية وعلى العالم..؟!

في تداعيات الشعبوية ال(جيوسياسية)..

أصبح جلياً وواضحاً، وعلى مستوى العالم؛ أنّ العولمة التي حسّنت الرفاهية بشكل عام، فإنّها أيضاً أدّت إلى تشريد العمال والصناعات، كما أنّها قادت إلى مزيد من التفاوت في دخول الأفراد، ما يخلق قاعدة انتخابية قلقة ورجراجة. وهي نفسها القاعدة التي دعمت نجاح (بريكست) في خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وفوّز الرئيس (ترامب) في الانتخابات الأمريكية.

وللدقة، فإنّ التقدم التقنيّ، وبناظرٍ أكبر من العولمة، هو الذي أدّى إلى تفاقم انعدام المساواة الاقتصادية، ما مهّد الطريقَ لحصول الاضطرابات السياسية في الدول المتقدمة.

صنّاع السياسات في الدول الناشئة حدّدوا انعدام المساواة كمشكلة رئيسية، ودعموا الجهود المبذولة لتحسين قدرة الناس على الارتقاء طبقيّاً، خوفاً وخشيةً من قيام العولمة والتقنيات الجديدة بتشريد الطبقات المتوسطة والعمالية فيها، ما يمهد الطريق لما يشبه (بريكست) وفوز ترامب في بلدانهم. وتحدّدت السياسات بوضوح، بالنسبة للدول الآسيوية، على أنّها؛
(الاعتناء بالناس المحرومين وتوفير إعادة التدريب والوظائف الجديدة للعمال المشردين).

وعلى الرغم من أنّ على جميع المجتمعات الاعتناء بالناس الأكثر فقراً فيها، وتحسين القدرة على الارتقاء الطبقي، ومكافأة ريادة الأعمال، وحثّ الناس على تحسين أحوالهم ومعيشتهم، إلّا أنّ التركيز على تلك السياسات لن يكون بوسعه (التعامل مع السخط الشعبي الكامن في هذه الانتفاضة الشعبوية، وذلك لأنّ انعدام المساواة ليس هو السبب الأساسي في السخط، بل هو الشعور بفقدان السيطرة). هذا بالإضافة إلى أنّه حتى لو تمكّنت البلدان من جسر الهوة في الدخل والثروة، وضمنت قدرة جميع مواطنيها على الارتقاء طبقيّاً، فإنّ القوى الموجودة حول العالم، والتي تشعل السخط الشعبي، سوف تبقى.

ففي تجربة التصويت (بريكست) في بريطانيا، تبين أنّ الناخبين من الفقراء المهمّشين همّ من صوّتوا جام غضبهم على الفقراء المهمّشين الآخرين، وخاصة المهاجرين، وليس الأغنياء. وذلك على الرغم من أنّ أكبر ممولّ لحملة التصويت كانوا من الأغنياء..؟! وهو ما أكّده مكتب عمدة لندن بوجود زيادة مقدارها 64% في جرائم الكراهية، خلال ستة أسابيع من الاستفتاء، مقارنة بالأسابيع الستة التي سبقت الاستفتاء. ما يعني أنّ انعدام المساواة في الدخل يمكن أن يكون جزءاً من الضجيج في خلفية حملة بريكست، إلّا أنّه لم يكن القضية الأولى بالنسبة للناخبين، الذين صوّتوا لمصلحة الخروج البريطاني من الاتحاد الأوروبي.

إنّ ما يجمع أنصار (ترامب وبريكست) ليس الغضب من استثنائهم من فوائد العولمة، بل من إحساسهم المشترك بالانزعاج، لأنهم لم يعودوا قادرين على التحكم بمصائرهم.

فاتساع هوة انعدام المساواة قد يزيد من هذا الانزعاج والقلق، غير أن هناك عوامل أخرى قد تزيد من ذلك الانزعاج والقلق كذلك، ما يفسر لماذا يشعر الناس بالقلق، ومن جميع مستويات توزيع الدخل.

فكثير من المواطنين في شرقي أوروبا شعروا بفقدان السيطرة خلال التجارب الاشتراكية القاسية، خلال حقبة ما بعد الحرب. وهو نفس الشعور الذي أحس به الصينيون خلال الثورة الثقافية، وهي مجتمعات يتواجد فيها الحد الأدنى من انعدام المستوى في الدخل.

إن قوة (محور عبر الأطلسي؛ أوروبا _ أمريكا)، والذي كان يدير العالم، ينزلق حيث يعمّ الشعور بخسارة التحكم والسيطرة، بين النخب السياسية والمواطنين العاديين، على حد سواء، في تلك البلدان.

لقد نجح ترامب في أمريكا، ونجحت حملة الخروج البريطاني من الاتحاد الأوروبي في بريطانيا، في إرضاء الناخبين وإقناعهم، بزيادة احتمالية أن تتمكن (القوى عبر الأطلسي) من إعادة فرض سيطرتها، ضمن نظام عالمي يتغير بسرعة. غير أنه مع صعود الجيوسياسي للدول الناشئة، وخاصة في آسيا، فإنه سيتوجب على هذا النظام تحقيق توازن جديد، أو استمرار انعدام الاستقرار عالمياً. فـجسر الهوة في الدخل يمكن أن يساعد الفقراء، ولكن ذلك لن يخفف من شعورهم بالقلق في الدول المتقدمة.

أوروبا.. وأشباح الشعبوية واليمين المتطرف

مَشهدان كارثيان بالِغا الدلالة لا تُخطئهما عينُ البَصَر والبصيرة الإنسانية الراهنة؛
_ مَشهدُ اللاجئين، الذين قضاوا في البحر المتوسط وهم في طريقهم إلى أوروبا.
_ ومَشهدُ الثلاثة آلاف يوناني، الذين انتحروا بسبب سياسات التقشّف، التي فرضها الاتحاد الأوروبي على اليونان، وقضى بالتالي على استقلالها.
وهما مشهدان يدعوان إلى التأمل وإلى الربط البصير بين واقعات الأمس التاريخية وبين واقعات اليوم التي لا يكثرث كثيرون بالتوقّف عندها..؟!
قبل نحو قرنٍ وثلاثة أرباع القرن صدَرَ في أوروبا «البيان الشيوعي» بافتتاحية تقول:
«ثمة شبح يطارد أوروبا، إنه شبح الشيوعية»..!؟

فاتّحدت قوى أوروبا القديمة كلّها لمحاربة الشيوعيين؛ البابا والقيصر، مترنيخ وغيزو (الأمير والكونت كليمنس مترنيخ؛ مستشار الامبراطورية النمساوية الألمانية/ فرانسواغيزو؛ رئيس حكومة فرنسا _ عشية إعلان البان الشيوعي في أوروبا)، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني.

ولم تبقَ جهةٌ معارضة للحكومات، جماعات وأفراد، إلا وطالتها تهمة الشيوعية..!؟

أما اليوم، فإنّ كثيراً من الأدبيات الصادرة في أوروبا وأمريكا، تتصدّر صفحاتها الأولى، تصريحاً وتلميحاً، افتتاحيةً مشابهةً، تقول:

«ثمة شبّح يطارد أوروبا.. إنه شبّح الشعبوية»..!؟

غير أنّ أحداً من قوى تيّنك (الأوروبا والأمريكا) لم يتّحد لمواجهة ذلك الخطر..!؟ وكأنّ هناك اتفاقاً ضمناً، غير معلنٍ، بأنّ الظاهرة لا تزال تتحرّك في راحة اليَد..!؟

فتمو السوق الأوروبية، وتحولها إلى ما يسمى الاتحاد الأوروبي، إضافة إلى مختلف التطورات الاقتصادية التي خضعت لها دول الاتحاد وانضمام دول جديدة بعد هزيمة المعسكر الشيوعي، والانحدار الاقتصادي الذي واجهته، بفعل الانتقال إلى الاقتصاد الرأسمالي النيوليبرالي، إضافة إلى العولمة، كلّها أثرت عميقاً في التركيبات الاجتماعية والتمييز الطبقي. ما أدّى إلى تغير في المفاهيم الفكرية والقواعد المسلكية. ومن هذه التأثيرات الجديدة نمو اليمين المتطرف الجديد، في مختلف أقاليم أوروبا شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.

أبحاث غربية كثيرة توقّفت، على نحو عابر، وبعضها بشكل عميق، عند الاضطرابات في كل من؛ إيطاليا وفرنسا والنمسا والدنمارك وسلوفينيا وبلغاريا واليونان وبريطانيا. أبحاثٌ حاولت تقديم فهم نقدي للتوجهات الأوروبية الحالية، والأخذ في الاعتبار الظواهر المعقدة، التي تتجمع تحت مسمى الشعبوية، مع التركيز على نحو خاص على الشعبوية اليمينية.

محاولات نقدية لا تزال تدور حول أسئلة كيفية جعل «الشعبوية» مفهوماً حسياً وملموساً؛

هل هي منظومة قيم..؟ أم إيديولوجية..؟ أم أنها أسلوب سياسي..؟ أم طريقة سرد..؟ وما علاقة هذه المفاهيم بالعصية، والعنصرية، ورفض أوروبا (euroscepticism)، أو معاداة النظام (anti-establishment).

وفي الأثناء، قامت بعض الأحزاب الأوروبية المتباينة الأهداف، والمنظومات الفكرية والسياسات، بتبني الشعبوية وممارستها في قضايا المجتمعات الأوروبية ومشكلاتها اليومية. وهو ما زاد الأمر تعقيداً، وجعل مفهوم (الشعبوية)، يتحوّل عند الباحثين إلى توصيفها بـ (الحرباء)، المتقلبة والمتلونة. فالشعبوية الأوروبية تسلّلت، وعلى نحوٍ عجيب، إلى الدول آنفة الذكر، على الرغم من كون تلك الدول متباينة المسارات والتواريخ والتجارب والقوانين والنظم الحزبية. فالمصطلح «شعبوية» تمكّن من استحضار التغير في الإيديولوجيا السياسية، عبر مزجها ببراعةٍ وبلاغة، بهدف السيطرة على عقول الجماهير.

واليوم، وصلت أوروبا، بمناطقها المختلفة، إلى وجود أطر غير واضحة المعالم، لأحزاب شعبية، مع اختلافات بين التجارب الشعبية في أوروبا الوسطى وشرقي أوروبا من جهة، ومثيلاتها في غربي أوروبا من جهة ثانية. كما أنّ هناك استحضاراً لعوامل جديدة، تتعلّق بالاستمرارية والانقطاع، في العلاقة مع الماضي التسلطي ومع العصبية، وفي العلاقة بين الشعبوية من جهة والديمقراطية والسلطة من جهة أخرى، بالإضافة إلى الرابط بين الشعبوية والجنسوية والعنصرية نظرياً وفعالياً، وفي كيفية تأثير الخطاب الشعبي في المشهد السياسي والثقافة السائدة.

التداعيات الاستراتيجية لصعود الشعبوية في الغربين الأوروبي والأمريكي..

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ سيطرة الرؤية التحليلية، القائمة على القول بأنّ التطور الديمقراطي يسير حتمياً في اتجاه تصاعدي، تُؤدّي، عادة، إلى تجاهل هشاشة بعض النظم الديمقراطية الحديثة في أوروبا الشرقية علي سبيل المثال. كما أنّ تلك الرؤية تُصعّب من رصد نمو الحركات الشعبية، التي تتميز بالديناميكية وعدم الثبات، داخل هذه النظم.

وفي الغرب الأمريكي، هناك مَنْ يعتقد بضرورة دراسة الحركات الشعبية، بوصفها تهديداً خارجياً للقوة الأمريكية، حيث يمكن لتلك الحركات أن تقوض القاعدة السياسية للنظم الأوروبية الغربية، التي تركز عليها الولايات المتحدة في استخدام قوتها العسكرية للتدخل في مختلف أنحاء العالم، كما فعلت لاحتواء الاتحاد السوفيتي وفي أزمة البلقان..؟! وفي اعتقادي أنّ تلك الرؤية ستضيف مزيداً من العتمة والغموض على

معرفةنا بالشعبوية، وذلك لأنها تقوم بهدف براغماتي نفعي، لا على أساس علمي معرفي إنساني.

إنّ تصاعد قوة ونفوذ الحركات الشعبوية خلال السنوات القليلة الماضية، في أوروبا والولايات المتحدة نفسها، متصلّ، بدرجة أو بأخرى، بتداعيات الأزمة المالية والاقتصادية العالمية الأخيرة. فتلك الأزمة المالية العالمية كان لها أثر كبير في خلق فجوة من عدم الثقة بين المجتمعات الغربية ونخبها الاقتصادية والسياسية. فعمليات الإشراف على العمليات المالية وتنظيمها، على المستويات القومية والعالمية، استندت إلى رؤية ضيقة مفادها؛ أنّ ربحية البنوك تعتبر في حد ذاتها مؤشرا علي فعالية النظام المالي. ولم يكلف أحد نفسه بالبحث في التداعيات الاجتماعية لهذا النظام، وما يترتب عليه من توزيع غير عادل للثروة. ما قاد إلى ميل شعبي عام لعدم تصديق دعاوى الحكومات عن الحاجة الملحة لإمداد قطاع البنوك بالمبالغ الضخمة من الأموال، والتي جاءت علي حساب الطبقات المتوسطة والفقيرة. وبالتالي، فقد انفجر الغضب الشعبي تجاه النخبة الحاكمة، التي اتهمت إما بالتواطؤ مع القطاع المصرفي، أو بالعجز عن الوقوف أمام نفوذه.

وما فاقم من الأزمة السياسية بين النخب والشعوب الغربية هو اضطرار معظم الحكومات الأوروبية، وقد تبعتها الولايات المتحدة الأمريكية، لاتخاذ إجراءات تقشفية شديدة، للتعامل مع أزمتها المالية الحادة. وقد أظهرت دراسات حديثة أن نسبة ديون هذه الحكومات قد بلغت معدلات غير مسبوقه وغير محتملة. ومعنى ذلك أنّ الحكومات الأوروبية وحكومة الولايات المتحدة تواجهان خيارات كلّها صعبة على المستوي السياسي، وهي تنحصر في رفع معدل الضرائب أو تخفيض الإنفاق الحكومي على الخدمات الاجتماعية والصحية أو الاثنتين معا. وكلها سوف تزيد من مستوي الغضب الشعبي، وعدم الثقة في النخب الحاكمة، وبالتالي ازدهار الحركات الشعبوية.

في الغضب الاقتصادي وتصاعد الشعبوية..

وزير العمل الأمريكي الأسبق، وأستاذ السياسات العامة بجامعة كاليفورنيا، روبرت ريش، يرى أنّ مظاهر وأسباب تصاعد الغضب الشعبي ضد النخبة السياسية والاقتصادية في الولايات المتحدة هو ازدياد الفجوة في الدخل، وتنازع النفوذ بين النخبة والطبقة المتوسطة الأمريكية، وما يراه تواطؤاً بين النخب السياسية والاقتصادية أدّى

ويؤدي إلي إلحاق الضرر بالمصالح الأساسية للطبقة المتوسطة، ويحد من قدرتها علي تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

فتصاعد مشاعر الغضب والتوتر في المجتمع الأمريكي، عقب الأزمة الاقتصادية، بحسب الوزير المريكي ريش، يعود إلي تزامن التراجع الاقتصادي العام مع إحساس الطبقة الوسطي بالحرمان النسبي. فرغم تلقي الأغنياء في الولايات المتحدة ضربة موجعة في العام 2008، فإن معظمهم قد استرد عافيته بحلول العام 2010، بينما ظلت الطبقات المتوسطة والفقيرة تعاني البطالة والحاجة. وبذلك، عادت الفجوة بين الأغنياء وباقي المجتمع الأمريكي في الاتساع مرة أخرى.

كما أنّ تركّز الدخل والثروة في الشريحة العليا من المجتمع الأمريكي أصبح يوضع قيوداً على إمكانية الطبقات الأقل حظاً في تحقيق التقدم الاجتماعي. فأبناء الطبقة العليا هم الأكثر حظاً في الحصول علي التعليم الجيد في الجامعات الخاصة، ذات المصاريف الباهظة، ما يعزّز من فرصهم في الحصول علي أفضل الوظائف بأعلى الرواتب. وتاريخياً، لم تؤد هذه الفروق الكبيرة في مستوي المعيشة والدخل إلي حدوث اضطرابات اجتماعية في الولايات المتحدة، نظراً لإيمان غالبية الأمريكيين بأنّ لديهم الفرصة، من خلال العمل الجاد، للحصول علي حياة أفضل ومزايا اقتصادية أكبر لهم ولأبنائهم. لكنّ الأمريكيين باتوا يشعرون بالقلق الشديد، نظراً لاجتماع الثروة مع القوة السياسية، واستخدام الثروة لشراء النفوذ السياسي.

تجلّى رد الفعل الشعبي، لكلّ هذه الممارسات، في ظهور خطاب سياسي يتميز بالمرارة والغضب، يهاجم بشدة النخب التي تنظر بتعال إلي الأمريكيّ العاديّ من أعضاء حركة حزب الشاي، ويسعي إلي الخلاص منها. كما اتخذ رد الفعل شكل الهجوم على فكرة التعددية الثقافية..؟! واتهام المهاجرين المقيمين في الولايات المتحدة بتهديد القيم الأمريكية المستمدة من التراث المسيحي _ اليهودي. وبسبب هذا المناخ المتوتر، أصبح كثير من الأمريكيين على استعداد لمساندة إجراءات اقتصادية تسبب ضرراً للنخبة الاقتصادية، حتي وإن عادت بالضرر عليهم أيضاً.

في هذا المناخ غير العقلاني، يتم الهجوم على التوسع في نشاط الحكومة في إدارة المجتمع من ناحية، وعلى مؤسسات (وول ستريت) من ناحية أخرى. ومن الطبيعي، أو قل من البديهيّ، إنّّه إذا استمر تفاقم الغضب الشعبي، نتيجة لامتداد فترة الأزمة الاقتصادية، فقد يتم تصعيد زعامات ديماجوجية شَعْبَوِيّة، تسعى للحصول على سلطة مطلقة، وتتبنّي سياسات سوف تضر بالولايات المتحدة داخليا وخارجيا.

في انتشار «الشعبوية» والتباسات معانيها واستخداماتها..

يشغل الحديث عن «الشعبوية» حيزاً كبيراً في النقاش السياسي والإعلامي، فيمتدُّ في وسائل الإعلام الأميركية، الشمالية والجنوبية، والأوروبية؛ من فنزويلا إلى اليونان، ومن إسبانيا إلى الأرجنتين. حيث تبدو الشعبوية وكأنها وباءً مجهول؛ موجودة في كلِّ مكان، لكنَّ لا أحدَ قادر على تفسير انتشارها الواسع..! وتتكاثر الأسئلة يوماً بعد يوم عن معنى «الشعبوية»، وهل هناك مخاطر فعلية تمثل «تهديداً شعبوياً» للديمقراطيات في العالم.

مصطلح «الشعبوية» وُلد كمفهوم أكاديمي، قبل أن يتحوَّل إلى مصطلح ذي استخدام عام. حيث ظهر بدايةً في سياق المفردات السياسية لبلد محدد، إذ استُخدم مفهوم «الشعبوية»، للمرة الأولى في نهاية القرن التاسع عشر، لوصف نمط محدد من الحركات السياسيَّة. فالمصطلح ظهر في روسيا في العام 1878، لتسمية مرحلة من مراحل تطوُّر الحركة الاشتراكية المحليَّة. فقد استُخدم حينها لوصف موجة العداء للثقافة التي انتشرت في العقد الثامن من القرن التاسع عشر، والاعتقاد السائد حينها بأنَّ على الاشتراكيين أن يتعلموا من الشعب أكثر من محاولتهم أن يكونوا أدلاءً له. وبعد ذلك بسنواتٍ قليلة، بدأ الماركسيون الروس باستخدام المصطلح، بشكل مختلف وسلبى، للإشارة إلى الاشتراكيين الذين يعتقدون بإمكانية أن يكون الفلاحون فاعلين أساسيين في الثورة، وأنَّ المشاعات التي يُبنى عليها المجتمع الاشتراكي الريفي يمكن أن تكون أسساً للمستقبل. وهكذا، تحوَّل هذا المصطلح للإشارة، في روسيا وفي الحركة الاشتراكية العالمية، إلى الحركات التقدميَّة التي تناهض الطبقات العليا في المجتمعات، وعلى عكس الماركسية تتبنَّى توجهات قوميَّة وتتماهى مع الفلاحين.

وبالتوازي تاريخياً مع روسيا، ولكن من دون علاقة مباشرة معها، ظهر المصطلح في الولايات المتحدة بعد العام 1891، كإشارة لحزب الشعب الأميركي، وهو الحزب الذي مرَّ بشكل عابر في الحياة السياسية الأميركية، وكانت قاعدته الشعبية مكوَّنة بشكل أساسي من المزارعين الفقراء، وحمل أفكاراً تقدّمية ومعادية للنخب. وكما حصل في روسيا، أشار المصطلح في سياقه الأميركي إلى حركة ريفية وذات توجهات معادية للثقافة، وسرعان ما تحوَّل إلى

مصطلح ذي معنى سلبيّ، كونه استُخدم بشكل أساسي من قبل المعادين لحزب الشعب.

غير أنّ مصطلح «الشعبوية» بقي هامشيّ الاستخدام حتى عقد الخمسينيّات من القرن العشرين، حين تمّ تبنّيه أكاديميّاً، وإنّ بمعانٍ مختلفة وجديدة بالكامل. فأصبحت الشعبوية، عند بعض الأكاديميين الأمريكيين، لا تعني نمطاً محدداً من الحركات السياسية، بل هي إيديولوجيا يمكن أن توجد في سياقات مدنيّة كما في الريف، وقد تظهر في كل المجتمعات باختلاف أوضاعها. ف«الشعبوية»، حسب تعريف إدوارد شيلز، هي «إيديولوجيا الاستياء الموجهة ضد نظام اجتماعي مفروض من قبل طبقة مضى على وجودها في وضع الهيمنة فترة زمنية طويلة، ويُفترض أنها تحتكر السلطة والثروة والامتيازات والثقافة». وكونها ظاهرة متعددة الأوجه، فقد أصبحت «الشعبوية» تتمثّل في حركات مختلفة فيما بينها، مثل البلاشفة الروس، والنازيين الألمان، والمكارثيين الأميركيين.. وغيرها.

وفي مستوى آخر من الدلالة والتعريف، أصبحت الشعبوية تعني تحريك المشاعر غير العقلانية لدى الجماهير، وتوجيهها ضد النخب السائدة، أي أن الشعبوية باتت تعني مجموعة الظواهر المبتعدة، كلٌّ على طريقته الخاصة، عن الديمقراطية الليبراليّة. ثمّ عاد الأكاديميون لاستخدام مصطلح «الشعبوية»، خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، بمعانٍ أخرى مشابهة للاستخدامات السابقة، وإن كانت متباينة إلى حدّ كبير. إذ استُخدمت لوصف مجموعة الحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالم الثالث، وخصوصاً في أميركا اللاتينية. حيث قيّم هؤلاء الأكاديميون أدوار هذه الحركات في منح حقوق أكبر للطبقات الأدنى في هذه البلدان بشكل إيجابي، لكنّهم أشاروا إلى مواصفات نمط القيادة التي ظهرت في هذه الحركات، بأنّها؛ شخصانيّة أكثر من كونها مؤسسانيّة؛ عاطفيّة على حساب العقلانيّة؛ وباحثة عن اجماعات أكثر من اهتمامها بالحفاظ على التعدديّة، وهو تقييم نابع من معايير ديمقراطيات العالم الأول (أي الليبراليّة).

وهكذا، توسّع معنى مصطلح «شعبوية» في العالم الأكاديمي، من استخدام ضيق مرتبط بالحركات الفلاحية إلى آخر أوسع، يصلح للإشارة إلى ظاهرة إيديولوجية وسياسية واسعة النطاق إلى حدّ كبير.

ثمّ بدأ استخدام مصطلح «الشعبوية» بالتوسع أكثر، ليدخل بعدها في حقل الاستخدام العام، وخصوصاً في العقود القليلة الأخيرة. حيث فُقد أي ضبط للمفهوم ومعانيه، وبات

بالإمكان نعت أي شيء بأنه «شعبي» في صحافة اليوم، فقد باتت الشعبوية ضرباً من الاتهام المجاني، الذي يتم إطلاقه بقصد النيل من الخصوم، عبر ربطهم بما يُصطلح أنه؛ غير مسؤول، غير أخلاقي، سلطوي، غوغائي، مبتذل، وخطير..؟! وفي السنوات الأخيرة، قُدّمت بعض حكومات أميركا اللاتينية الراضة للامتثال للسياسات الأميركية وتوصيات صندوق النقد الدولي على أنها حكومات شعبيّة. هكذا، اعتُبر أنّ حكومات فنزويلا ونيكاراغوا والأرجنتين وبوليفيا والباراغواي وإكوادور والبرازيل تمثّل «خطراً شعبيّاً» على الديمقراطية في المنطقة. قد يعتقد المرء أنه قد فهم ما هو المقصود بـ «الشعبويّة» حين يطلع على هذا الأمر، لكنه سيفاجأ حينها أنّ الإيطالي سيلفيو برلسكوني، وهو ليس عدوّاً للولايات المتحدة، ولا للشركات الكبرى بطبيعة الحال، يُعتبر شعبيّاً أيضاً. وهو كذلك، حسب الإيكونوميست، لأن حكومته قامت على روابط «الزبائنية والفساد»، أو لأنه «يتكلم بلغة الناس العاديين في الشوارع»، حسب تعبير معلقٍ سياسي آخر. وتعتبر صحيفة نيويورك تايمز أن الخطابات الأوروبية حول وضع القيود على الهجرة الداخلية أو المناهضة للاتحاد الأوروبي هي خطابات «شعبوية». أي أنّ وجود إحدى هاتين السمتين يكفي لاكتساب صفة الشعبوية. كما تلقى باراك أوباما سابقاً اتهاماً بالشعبوية، فقط لأنه صرّح أنه سيكون سعيداً لو حصلت زيادة طفيفة على الضرائب المفروضة على أصحاب رؤوس الأموال الكبرى. بدورها، اتهمت صحيفة وول ستريت جورنال هيلاري كلينتون بالشعبوية لأنها اعتبرت أن على الكونغرس أن «يركّز على خلق فرص عمل، وعلى تحسين دخول عائلات الطبقات الوسطى». كان هذا كافياً بالنسبة للصحيفة كي توجّه الاتهام بالشعبوية، إذ يكفي التصريح عن القلق حول مستويات الدخل كي يكون الاتهام بالشعبوية قائماً.

إذاً، الشعبوية ظاهرة سياسيّة، وهناك أيضاً شعبوية اقتصادية. فهل هذه هي حدود الظاهرة؟ بالطبع لا.. إضافة لما ذكر سابقاً فهناك من يتحدث عن وجود «شعبوية ثقافية»، أي تلك التوجّهات التي تُعلي من شأن الثقافة الشعبية، بالتضاد مع أنواع أكثر «جديّة» من الثقافة..! كما يبدو أن «الشعبوية» قد تغلغت في جميع مناحي الحياة، ففي كلّ استخدامات المصطلح المتعددة، يبدو أن «الشعبوية» أصبحت ليست أكثر من لاحقة، أو لازمة، تُستخدم لإضافة مصداقية مصطلحية على مفاهيم أقدم وأقل تطوراً، مثل «غوغائية»، أو «سلطوية» أو «قوميّة» أو «ابتذال». فقد صار المصطلح يُستخدم غالباً، من أجل الحطّ من قيمة أفكار وقرارات سياسية واقتصادية غير نمطيّة، ومن أجل ربط هذه الأفكار والقرارات بما هو بغيض، مثل النازية والعنصرية.

لقد صار مفهوم «الشعبوية» عبارة عن أداة عراقٍ خطابي شديدة الأدلجة، ولم يعد لهذا المصطلح أهمية لفهم الوقائع التي نعيشها. ففي استخداماته الحالية، قد يشير المصطلح إلى تنويع كبيرة من الحركات السياسيّة، أو أنماط متباينة من النظم السياسيّة، أو أشكال لممارسة الحكم، أو نماذج اقتصاديّة، أو ببساطة مجرد مظاهر مُوظّفة في الممارسة السياسيّة. حيث يعمل مفهوم «الشعبوية» كأداة انتقاص، كما أسلفنا، إذ ليست له وظيفة تُذكر خارج الطعن بمن يُشار إليه كشعبوي.

في الختام، أو في خلاصة هذا البحث، أقترح، أيّها السادة الأفاضل، ما يلي؛

_ إنتاج معايير إنسانية متعدّدة، وفي كلّ ثقافة عامة للمجتمعات البشرية، في الخطاب الموجّه لجماعة ما. بحيث تكون هذه المعايير حدّاً فاصلاً بين ما هو شعبيّ مرذول وبين ما هو غير شعبيّ. ذلك أنّ كلّ قضية عامّة، ومهما كان جوهرها، تحتاج إلى درجة ما من الاقتناع والإيمان بها والحماس لها، كي تنجح.

_ لا بُدّ من التفريق بين المعايير المُحدّدة للشعبوية، في خطاب النُخب الحاكمة، أو التي هيّ في موقع الحُكم، وبين تلك المعايير المطلوبة في خطاب النُخب المعارضة، غير الحاكمة، أو التي تسعى إلى الحُكم. ذلك أنّ خطاب الحُكامة محكوم بما هو ممكن ومستطاع وتُتيحه موارد الحكم والدولة والمجتمع، أما خطاب من يسعى إلى الحُكم فلا محدّدات فعلية له، وهذا لا يتأتّى إلا بانحكام خطاب الأطراف المتنافسة، على الناس وعلى الحكم، إلى البرامج العلمية والواقعية المقترحة لإدارة حياة الناس والمجتمعات.

_ إنسانياً، وعلى مستوى العالم، أقترح تطوير مفاهيم محدّدة وواضحة تجرّم مفردات الخطاب الشعبيّ، الذي يتخذ من قضايا حقوق الإنسان، ومعتقداته وأديانه ومذاهبه وأعرافه وجنسه ولونه، مادّة شعبيّة، لكسب تأييد الجماهير أو الجماعة البشرية، بما في ذلك قضايا المرأة والطفل وحقوقهما، والآخر المختلف في الرأي، وبصرف النظر عن موقع صاحب الخطاب الذي يتوسّل الشعبوية أو مكانه ومكانته، سواء في الغرب أو في الشرق، وسواء كان في الحُكم أو في المعارضة.

_ ومن نافلة الكلام هنا، أنّ كارثيّة الأحوال، المحليّة والعالميّة، تستدعي البدء بتحديد أدقّ التفاصيل المتعلّقة بمفهومَي؛ (الإرهاب والإسلاموفوبيا) و(المهاجرين) التي تحتاج مجتمعات الغرب على وجه الخصوص.

وغير ذلك الكثير من التفاصيل حول تلك العناوين، التي أقترح أن نبدأ ورشات عمل حولها في بلادنا العربية، أولاً، والتي لا مجال هنا لتفصيلها أكثر.

شاكراً، لمنتدى أصيلة العريق، ولجامعة المعتمد بن عبّاد، وللصديق النبيل
معالي الأخ محمّد بن عيسى، ريادتهم في اختيار هذا العنوان الشائك
والملتبس والمهم.

كما أشكركم على رحابة صدوركم وسعتها، في عناء الاستماع والتفهم.
ولكم السلام. ومنكم سلامٌ. وعليكم سلامٌ.
اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ. وَمِنْكَ السَّلَامُ. وَإِلَيْكَ يَعُودُ السَّلَامُ.

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) *
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ.

(*)_ آية 17؛ سورة الرعد؛ قرآن مجيد.